صورة بلاد الشام في رحلة أوليا جلبي - سياحت نامة في المجلدين الثالث والتاسع - طريق الحج الشامي (1059-1081هـ/1649-1671م)

عبد القادر محمود الحصان

ملخص البحث

يعتبر هذا البحث في قسميه الأول والثاني بداية ومقدمة أولية لترجمة رحلة أولياء جلبي – سياحت نامة بمجلديها الثالث والتاسع المتعلقين بزيارة الرحالة العالمي العثماني التركي لبلاد الشام (سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين والحجاز) واللذين يعمل الباحث جاهدًا لإخراجهما إلى حيز الوجود بعونه تعالى من اللغة التركية العثمانية إلى العربية وذلك لتسليط الضوء على هذه الرحلة التي لم تطرق أبوابها بشكل كامل بعد وخاصة في بلاد الشام آملًا أن يكون هذا البحث مقدمة موفقة لتسليط الضوء على الأوضاع المعيشة آنذاك بكل تفاصيلها من منظور تاريخي منهجي يعتمد الترجمة العلمية بكل صدق وأمانة دونما زيادة أو نقصان لتوفير مادة تاريخية، وجغرافية، واجتماعية، وسياحية، واقتصادية، وزراعية، وتجارية، بالإضافة إلى الأبعاد الدينية والأساطير والخرافات التي كان يتميز بها روح ذلك العصر وأهله.

كما أَلْفِتُ إلى أنني اعتمدت في بحثي هذا طريقتين، الأولى تتمحور على القسم الثاني الذي يتعلق برحلة الحج الشامي من دمشق وحتى قلعة جغيمان (المدورة) كترجمة متكاملة بكل دقائقها وتفاصيلها كما هي؛ لتسليط الضوء عليها من منظور تاريخي مترجم عن اللغة الأم لتكون مادة تاريخية على كافة الصعد، علمًا أنها تتضمن البُعد الزراعي من خلال المساق دون تخصيص للإفادة من المادة المترجمة كاملة غير منقوصة لأنها تطرق لأول مرّة لأهميتها.

وفي القسم الثالث لجأت إلى إسلوب آخر انتقائي في اختيار الموقع والمادة التي تتعلق بالزراعة ومنتجاتها المتنوعة على سبيل المثال لا الحصر ليتسنى لي مستقبلًا استكمال هذا الجهد ولفت النظر إلى هذه الرحلة الهامة من تاريخنا العربي الإسلامي، وشموليته لذلك ضمن السياق العام دونما تخصيص إلاّ في القسم الثالث من محتواه كما أسلفت لأهميّة الموضوع لدراسات بلاد الشام وتاريخها في العهد العثماني وخاصة طريق الحج الشامي عامة وفي الأردن خاصة «ونِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِين» صدق الله العظيم.

مقدمة

بادئ ذي بدء لابد للباحث أن يشير إلى ماهيّة سياحت نامة وكاتبها الرحالة الشهير أولياء جلبي والتي مرّ على كتابتها ما يقرب من أربعة قرون، والتي لم يطّلع عليها الباحثون إلاّ ما ندر للأسف وذلك لعدم ترجمة تلكم الرحلة إلى العربية بعد، فقد ولد الرحالة بتاريخ 1611م ويقال بأن سبب هذه الرحلات والجولات العالمية المتميزة والتي استمرت أكثر من أربعين سنة يعود إلى أن أولياء جلبي رأى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة عاشوراء عام 1630 في منامه وقد أمسك بيده الكريمة به ومن شدة فرحه قال (سياحة يا رسول الله) بدل أن يقول (شفاعة يا رسول الله) ومن خلال ذلك فقد بشره الرسول الكريم

بالشفاعة والسياحة على السواء، وقد علت همتّه وأبدع في منجزاته المادية والمعنوية التي لا تقدر بثمن للإنسانية جمعاء وللأمة العربية الإسلامية على وجه الخصوص.

وقد دوّن كافة مشاهداته في عشرة مجلدات بما يقرب من عشرة آلاف صفحة من القطع المتوسط باللغة التركية العثمانية (بالخط العربي)، وهو بذلك يعتبر من أغزر المؤلفين العثمانيين إنتاجًا وتنوعًا وبكل صدق وأمانة فقد كانت كتاباته وعاءً حافظًا لكافة معارف وأحوال القرن السابع عشر تقريبًا، وهذا الأمر أكسب كتاباته قدرة تسجيلية كبيرة نظرًا لشغف وحب الرحّالة بالتفاصيل الدقيقة والكبيرة على السواء وتمتعه بأسلوب الرواية والحكاية كأساس لهذا النمط من التأليف والتوثيق، كما أننا سنحلق سويًا معه من خلال رحلته الخالدة عبر التاريخ المحدد بالمكان والزمان... لتبقى الذاكرة القوميّة الإنسانية متقدة راسخة في الوجدان والعقول لنوصل سويًا حلقات الماضي والحاضر بالمستقبل المشرق رغم كل الإرهاصات التي نعايشها هذه الأيام لإعادة كتابة تاريخنا المجيد على أسس علميّة خالصة بهمة الغيارى من أبناء الأمة المخلصين... ونعم أجر العاملين.

صورة بلاد الشام في رحلة أولياء جلبي
(1059-1081هـ/1649-1671م)

نبذة عن حياته

أوليا جلبي ابن درويش محمد آغا ظلّي. واسمه الحقيقي غير معروف. غير أنه قيل أن اسمه حافظ محمد خواجا، (جذوره من القوقاز – بلاد الشركس). وهو من مواليد إستانبول عام 1020هـ/1611م. والده درويش محمد آغا كان مُعَمّرًا، حيث عاش أكثر من 117 سنة. درس أوليا جلبي سبع سنوات في مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندي، وعمل على حفظ القرآن الكريم على يد أستاذه أوليا محمد أفندي، والذي قيل أن اسمه انتقل إليه منه. وتعلّم من والده في هذه الأثناء حسن الخط وفن الحك إضافة إلى فنون أخرى.

وقد قُدِم أوليا جلبي إلى السلطان مراد الرابع (1032-1049هـ/1623-1639م) أثناء وجوده في مسجد آياصوفيا، فعيّنه في مستودعات القصر السلطاني، حيث عمل فيه أربع سنوات انتقل على إثره إلى فرقة الفرسان (السباهية) بعد تعيينه براتب أربعين آقجة (درهم فضي).

توفي أوليا جلبي -رحمه الله- عام 1094هـ/1682م. وقيل يحتمل أنه توفي عام 1096هـ/1684م. كما إن تاريخ وفاته ومكانهما غير واضحين؛ غير أنه باستقراء المعلومات الأخيرة التي دونها في رحلته يمكن القول أنه توفي في إحدى هذين التاريخين المذكورين وذلك عن عمر يناهز السبعين عامًا (زكريا 1934: 8-14).

الأسلوب والمنهج المتبعان في سياحت (سياحة) نامه

- أسلوب الجذب وشد الانتباه من خلال الكثير من الروايات والأساطير المحلية والخرافية مع سلاسة في اللغة بل واستخدامه التركية العامية التي تشوبها بعض الأخطاء الإملائية والنحوية أحيانًا.
- الاعتماد على الكتب والمراجع التاريخية العربية وعلى رأسها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وكذلك بعض كتب التاريخ مثل: الطبري والمقريزي وغيرها ورغم ذلك كله فقد وقع في أخطاء تاريخية وحقائق علمية راسخة مثل ذكره أن حاتم الطائي من الصحابة وله مقام يزار قريبًا من قلعة المفرق وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بفتح بُصرى الشام والصنمين وهذا الأمر على سبيل المثال لا الحصر.
- ذكر وتوثيق الكثير من الحوادث التي عاشها ميدانيًا بكل دّقة وبتفصيل لا متناهٍ... مع كتابة التواريخ بكل أمانة وتوثيق الأسماء والشخصيات التي صادفها ورافقها أو سمع عنها.
- توثيق الذاكرة القومية لكافة المزارات والمقامات والمساجد والقلاع على طريق الحج الشامي بكل دقّة وأمانة مع دقّة متناهية في نقل أسماء القبائل والتقسيمات الإدارية والرتب العسكرية والنقود المالية والمأكولات والضرائب والمنتجات الزراعية وغيرها (صابان 2001: 62-93).
- الاهتمام بكثير من الأساطير والروايات الشعبية وما يسمى بالإسرائيليات التي تمثل روح ذلك العصر وربطها بالعديد من المقامات والأضرحة المنتشرة على امتداد البلاد التي زارها وخاصة في بلاد الشام.
- الاهتمام في نقل كافة المعلومات المعمارية للمناطق

التي زارها في بلاد الشام وذكر قياساتها وأبعادها المعمارية بدقة بالإضافة إلى الأشرطة الكتابية التأريخية لكل منها مثل قلعة حلب، والمسجدين الأمويين في حلب ودمشق، ومسجدي الأقصى وخليل الرحمن وغيرها الكثير، زد على ذلك قلاع الحج الشامي الموجودة في الأردن والتي ترجم مادتها الباحث وكتب عنها كتابه الموسوم "القلاع والخانات التركية العثمانية في الديار الأردنية".

- الاهتمام باللهجات واللغات المحلية لكل المناطق التي زارها وخاصة مناطق شرق تركيا ولهجاتها الكردية وكذلك اللغة العربية ولهجاتها في سوريا ولبنان وكذلك اللغتين السريانية والعبرانية (السامرية) في جبل نابلس بالإضافة إلى كتابة الآيات القرآنية الكريمة وتوثيقها حسب السورة والآية زد على ذلك رواية الشعر باللغتين العربية والتركية وأحيانًا الكردية.
- ومن خلال مطالعات الباحث للنصوص الأصلية العثمانية والحديثة التركية يتضح لنا أن أوليا جلبي رحمه الله كان بصدد تنقيح وزيادة المناطق التي تركت فارغة بين قوسين للتأكد منها لاحقًا ولكنه للأسف لم يتمكن من ذلك لأسباب نجهلها داعين الله عز وجل أن تكون أعماله تلك في ميزان حسناته (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم) صدق الله العظيم.

مخطوطات الرحلة – سياحت نامة وأماكن تواجدها

- ضُمِّنت سياحت نامة رحلة أوليا جلبي في عشرة مجلدات من القطع المتوسط مكتوبة بخط اليد ولها عدة نسخ مخطوطة في المكتبات التركية والعالمية وهي كالآتي:
- نسخة في مكتبة مللت بحي السلطان محمد الفاتح في إستانبول، ضمن مجموعة برتو باشا تحت الرقم (458-462).
- نسخة مكتبة جامع السليمانية في إستانبول، ضمن كتب بشير آغا تحت الرقم (448-462) تعود إلى عام (1158هـ/1745م).
- نسخة مكتبة قصر طوب قابي في إستانبول، ضمن مجموعة كتب قصر روان وقصر بغداد على التوالي تحت الأرقام (303-301) و(305-309).
- نسخة خالص أفندي تحت الرقم (2750) المجلدات (1، 3، 4) وكذلك نسخة حميدية تحت الرقم (963) المجلد (10).
- نسخة مكتبة جامعة إستانبول تحت الرقم (2371) وتعود إلى عام (1170هـ/1756م) وكذلك المجلدان (1، 2) تحت الرقم (5939)، ونسخة أخرى تعود إلى عام (1155هـ/1742م)
- نسخة قسم تاريخ جامعة يلدز في إستانبول تحت الرقم (48) المجلد (10).
- دار المخطوطات العربية، والفارسية والتركية في فيينا - النمسا، المجلد الأول.
- مكتبة الجمعية الآسيوية الملكية في لندن – بريطانيا، تحت الأرقام (22-23) المجلدات (1، 2، 3، 4).
- مكتبة جامعة مانشستر في بريطانيا، مجموعة لندسي تحت الرقم (142) المجلدان (3، 4).مجموعة أر. تشوري- باسل المجلدات (1، 2، 3) وكذلك ضمن مجموعة مينزل المجلدات (1، 2، 3، 4، 5).
- مكتبة التكية السليمية في أوسكدار بإستانبول الشرقية، المجلدات العشرة كاملة.

النسخ المطبوعة في العهد العثماني من سياحت نامة بالحرف العربي العثماني

- مقتطفات من سياحت نامة تحت عنوان (منتخبات أوليا جلبي) في عام 1258هـ/1844م – إستانبول (150 صفحة).
- طبع للمرة الثانية في القاهرة عام 1262هـ/1848م تحت عنوان (منتخبات أوليا جلبي) أيضًا (143 صفحة).
- كما طبعت مقتطفات أخرى في إستانبول في عام 1308هـ/1890م (104 صفحات).
- كما قام أحمد جودت صاحب جريدة إقدام بطباعة ستة مجلدات (1-6) في مطبعته بمساعدة الكاتب نجيب عاصم وبمساعدة قراكسون في المجلد السادس بين عامي (1314 و1318هـ/1896 و1900م) وقد كان عدد صفحات تلك المجلدات كالآتي: (707، 484، 539، 436، 608، 563 صفحة على التوالي).
- كما طبع المجلدان السابع والثامن من قبل مَجْمَعْ التاريخ التركي عام 1928م، تحقيق رفعت بلكه الكيليسي وقد طبعت في مطبعتي الدولة وأورخانية

وقد كان عدد صفحاتهما (933 و792 صفحة على التوالي).

النسخ التي طبعت في العهد الجمهوري التركي بالحرف الجديد (اللاتيني)

- طبع المجلد التاسع من قبل مجمع اللغة والتاريخ التركي عام 1935م في مطبعة مكتبة الدولة بإستانبول وكان عدد صفحاته (849 صفحة).
- طبع المجلد العاشر من قبل مجمع التاريخ التركي أيضًا عام 1938م وكان عدد صفحاته (1112 صفحة).
- كما قام مصطفى نهاد أوزأون بإصدار ثلاثة مجلدات تحت عنوان "لوحات من حياة القرن السابع عشر من سياحت نامة - أوليا جلبي" ما بين عامي 1945/1944 و1977/1976" وكان عدد صفحاتها (426 و180 و845 صفحة على التوالي).
- كما أصدر لاحقًا عام 1986 تحت عنوان (الأشياء التي شاهدتها) سياحتنامة -أوليا جلبي- وقد طبعت في إستانبول بمكتبة الانقلاب عدد صفحاته (734 صفحة).
- كما أصدر سلاحدار محمد آغا دراسة تحت عنوان "حياة القصر في القرن السابع عشر – تاريخ سلاحدار" عام 1947م في مطبعة أقبا بأنقرة وعدد صفحاته (256 صفحة).
- كما ألف الكاتب اليوناني (كسينوفون أناباسيس) كتابًا تحت عنوان "عشرات آلاف الرجاءات" ترجمة خير الدين أورس عام 1939م طبع بمطبعة رمزي للكتاب. وعدد صفحاته (293 صفحة).
- أصدر كل من تمل قوران ونجاتي أقتاش المجلدين الأول عام 1975م، والثاني عام 1976م (صابان 2001).
- الطبعة التي اعتنى بها ظهوري دانشمان والتي صدرت من الدار التي سماها باسمه في إستانبول، وذلك عام 1970/1969م. وقد صدرت أيضًا في عشرة مجلدات.
- طبعة دار أوج دال بإستانبول، عام 1985م. وتقع أيضًا في عشرة أجزاء (ستة مجلدات).
- الطبعة التي اعتنى بها رشاد أكرم جوجو بإساتنبول بين عامي 1943 و1951م في خمسة مجلدات.
- كما صدرت عام 2004م عن مطبعة قبالجي في إستانبول طبعة جديدة موسعة من سياحت نامة - أوليا جلبي (الأشياء التي شاهدتها) من تأليف مصطفى نهاد أوزأون والتي كانت النصوص من مختاراته كما أسلفت سابقًا وبمشاركة نجات أوزأون، وعدد صفحاتها (828 صفحة).
- وقد تبنت إدارة العمل والإقراض الثقافي طباعة كافة المجلدات بدءًا من عام 1999م من قبل عدد من المحررين والكتّاب مثل: سيد علي قهرمان، ويوجال داغلي، ود. دانكفون، و ز. قرشون حتى عام 2007م. وكانت تحت عنوان:(كتب أوليا جلبي) ضمن منشورات العمل والإقراض.
- كما أعادت نفس الجهة طباعة كافة المجلدات العشرة تحت عنوان: "بتركيتنا المعاصرة سياحت نامة أوليا جلبي" وذلك بين عامي 2003 و2011م، ومن قبل الكاتبين سيد علي قهرمان ويوجال داغلي على هيئة عشرة مجلدات كل واحد منها مكون من كتابين بدءًا من إستانبول وحتى مصر والحبشة تحوي ما يقرب من عشرة آلاف صفحة (الحصان 2011).

أهم المراجع واللغات التي ترجمت إليها رحلة أوليا جلبي وذُكِرَتْ من خلالها

- اللغة الإنجليزية من قبل (لدن هاممر) وقد ترجم المجلدين الأول والثاني بين عامي 1834 و1850م في لندن تحت عنوان " Narrative Of Travels in Europe and Africa. by Evliya Efendi".
- نشرت مقالة بالانجليزية في مجلة دائرة الآثار في فلسطين عن زيارة أوليا جلبي لنابلس عام 1671م بعنوان " Evliya Chelebies Travels in Palestine" (QDAP 1934).
- كتب الكاتب السوري أحمد وصفي زكريا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عام 1351هـ/1932م عن رحلته وخاصة المجلد الثالث تحت عنوان "رحلة أوليا جلبي" المجلد الثاني عشر. وقد عرّب هذا المجلد وخاصة الجزء الخاص بسوريا بتصرف.
- ذُكر في (التقويم السنوي لولاية سوريا) عام 1304هـ أثناء قدومه للشام مع مرتضى باشا عام 1058هـ.
- كما ترجم المجلد العاشر الخاص بمصر والسودان والحبشة في مصر عام 1950 ولم يتسن طباعته إلا

عام 2010م. كما ذكرها د.مازن النجار في مقالته "أوليا جلبي ووصف مصر" وكذلك الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة (أثيوبيا) – الفصل الحادي والسبعون منها، عام 2008م (الحصان 2011).

- ذكر الباحث الفلسطيني إحسان النمر في الجزء الثاني من "تاريخ جبل نابلس والبلقاء" الذي طبع عام 1380هـ/1961م في مطبعة النصر بنابلس، ص. 270-271، وكان الذكر حول سياحتنامة - أوليا جلبي وخاصة فيما يتعلق بجبل نابلس والمال الميري المجموع منه عام 1671م.
- ذكر الباحث مصطفى مراد الدبّاغ في موسوعته "بلادنا فلسطين"، ج 2، قسم 2 في الديار النابلسية ما ذكرهُ أوليا جلبي عن جبل نابلس في الصفحتين 150 و151.
- كتب الباحث د.سهيل صابان دراسة بالعربية تحت عنوان "أوليا جلبي ورحلته إلى الحجاز في أواخر القرن الحادي عشر الهجري" في مجلة الدارة - 34س27 عام (1422هـ/2001م) ص. 62-93.
- كتب الباحث د.أنيس القيسي بحثًا مترجمًا إلى العربية تحت عنوان: "الرحّالة التركي أوليا جلبي وكتابة سياحتنامة" في ثماني صفحات ذكر من خلالها معلومات مكثفة عن الرحلة والرحالة على السواء.
- كما كتب الباحث أ. د. عيسى ميمشي من قسم الدراسات الشرقية في جامعة بريشتينا/كوسوفا دراسة صغيرة من خمس صفحات تحت عنوان: "معطيات أوليا جلبي في "سياحتنامة" عن السنجق والجبل الأسود" باللغة العربية (الحصان 2011).
- وقد ترجمت الرحلة إلى عدة لغات تخص البلاد التي زارها الرحالة أوليا جلبي وخاصة إلى اللغات: الهنغارية، واليونانية، والروسية، وكذلك العربية التي يقوم الباحث جاهدًا كما أسلفت في المقدمة بترجمة المجلدين الثالث والتاسع بشكل متكامل وخاصة في ما يتعلق بالعراق وبلاد الشام (الأردن، وفلسطين، وسوريا، ولبنان) علمًا أن الباحث التركي سهيل صابان ترجم رحلة أوليا جلبي إلى بلاد الحجاز ترجمة جزئية. مؤكدًا على ضرورة انتباه القارئ الكريم إلى كافة المراجع والمصادر الرئيسة والفرعية التي استفاد منها الباحث وذكرها ضمن المساق المتعلق بالمخطوطات والكتب المترجمة قديمًا وحديثًا على حد سواء وذلك للأمانة العلمية وحفظ حقوق الجميع على حدٍ سواء "وَكَفَىَ بِاللهِ شَهِيدًا" صدق الله العظيم.

محتويات رحلة أوليا جلبي في المجلدين "الثالث والتاسع"

المجلد الثالث

خصصه لرحلته من الشام إلى صيدا عام (1059هـ/1649م)، والمواقع التي مر عليها، وفصّل القول في التوجه إلى صيدا بمعيّة عساكر ولاية الشام تحت قيادة مرتضى باشا لاستلام الأموال التي بقيت في ذمة أولاد معن (المعنيين) في لبنان، حيث كانوا يرفضون دفعها، فوصف مشاهداته أثناء الطريق وما صادفه فيها من الأمور الغريبة والعجيبة. وقد أشار إلى الجبال والوديان والأنهار والبلدات والقرى الواقعة على الطريق مع وصف عادات ومذاهب أهلها ووضعها الزراعي والتجاري.

ووصف المزارات المعروفة في المنطقة، والمدن الفلسطينية التي مر بها في التاريخ المذكور، مثل القدس ونابلس وصفد وعسقلان وغزة. ثم انتقل إلى الحديث عن رحلة العودة إلى الأناضول بعد مغادرة الشام عام (1059هـ/1649م) عن طريق الرها ومنها إلى قيصري وسيواس ثم توجه بعد ذلك إلى ديار بكر برفقة مرتضى باشا، لتحصيل بعض الأموال من حاكمها. ووصف في هذا الصدد المدن الشرقية من تركيا واستفاض في الحديث عنها.

ثم انتقل إلى الحديث عن طريق العودة إلى إستانبول عام (1060هـ/1650م) وقد نُصّب فيها ملك أحمد باشا صدرًا أعظم للدولة العثمانية في تلك الفترة.وقد تحدث أولياء جلبي عن أوضاع الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الرابع، وركز على السياسة الإدارية والإقتصادية التي اتبعها الصدر الأعظم الجديد، ثم أشار إلى عزله من هذا المنصب، والأسباب التي أدت إلى ذلك. ثم انتقل إلى الحديث عن مدن البلقان التي توجه اليها عام (1062هـ/1652م) وذلك بمعية ملك أحمد باشا -المزال من الصدارة-، ووصف تلك المدن التي مر عليها، مثل فليبه وصوفيا، وذكر عدد أحيائها السكنية، ومحلاتها التجارية، وعدد الجوامع والمساجد فيها، وأشار إلى خصائص كل

مدينة وأماكن التنزه فيها، ثم تحدث عن العودة إلى إستانبول في شهر شعبان عام (1063هـ/1652م) ثم مكوثه فيها ومغادرته إياها في شهر جمادى الأولى عام (1065هـ/1654م) متوجهًا إلى مدينة وان في شرق تركيا، وذلك بمعية الصدر الأعظم السابق ملك أحمد (صابان 20000).

المجلد التاسع

في هذا المجلد بقسميه الأول والبالغ عدد صفحاته (942 صفحة) يستكمل رحلته في المناطق التي لم يزرها من قبل في الأناضول الغربية والجنوبية بدءًا من كوناهية ومانيسا وإزمير وأنتاليا وقهرمان وصولًا إلى أضنة وبعد أن يصف تلك المناطق بكل ما تحتويه من ملامح معمارية وحوادث تاريخية واجتماعية وأساطير شعبية وحتى تعدد اللهجات اللغوية المحلية في هذا المجلد يصل في رواياته إلى البلاد التي حنّ إليها مطولًا منذ طفولته المبكرة؛ البلاد العربية، بدءًا من حلب الشهباء والشام الشريف والقدس الشريف وخليل الرحمن وجبل لبنان وصولًا إلى أهم الأحداث بالنسبة إليه وهي رحلة الحج إلى الديار المقدسة في مكة المكرمة وزيارة المدينة المنورة وذلك عام (1081هـ/1671م) برفقة أمير الحاج حضرة الوزير حسين باشا (صابان 2001: 8-9)، ويذكر من خلالها منازل الحج الشامي من بدايتها في منزل قصر أحمد باشا الصغير مرورًا بالكسوة والصنمين وزرعا ومزيريب وغيرها في سوريا مع إخبارنا عن أهم الأحداث والزيارات التي قام بها وأهمها اجتماعه مع شيوخ القبائل البدوية في مزيريب، ثم ينتقل بعد ذلك إلى المنازل اللاحقة والموجودة حاليًا في الحدود الأردنية وأولها (طرّا) القريبة من الرمثا وصولًا إلى قلعة المفرق والزرقاء والبلقا والقطرانة والكرك حتى آخر محطة للحاج الشامي في الديار الأردنية ألا وهي منزل قلعة قدرة جغيمان والمسماة حاليًا بالمدورة على الحدود السعودية مباشرة.

كما يذكر في هذا المجلد وخاصة في القسم الثاني منه روايات وأساطير متنوعة ويذكر مقامات الأولياء الصالحين والأنبياء الكرام إضافة إلى ما يتعلق بالمدن من دمشق وحتى حلب مرورًا بمدن الساحل السورية واللبنانية وكذلك الفلسطينية مع ذكر كافة الأوضاع الاقتصادية والتجارية والزراعية فيها زد على ذلك استكمال منازل الحاج حتى مكة المكرمة واستكمال مناسك الحج الذي كان حلمه منذ نعومة أظفاره (الحصان 2011).

القسم الثاني

<u>رحلة أوليا جلبي – المجلد التاسع – القسم الثاني الصفحات 611-655 – منازل طريق الحج الشامي في بلاد الشام)</u>[1]

توضح هذه الرحلة المنازل التي مررنا بها أثناء الذهاب إلى الكعبة الشريفة من (الشام - رائحة الجنة) بتاريخ (شوال 1081هـ/شباط 1671م) بعد المكوث خمسة عشر يومًا في الشام الشريف تسنى لي كتابة الخواص التي تتميز بها قدر الإمكان، ومن ثم بدأنا بالتحضير للذهاب في رحلة الحج راجين الله التسهيل.

في تلك الأثناء عُين الشقيق الأصغر للمرحوم سياوش باشا حضرة وزيرحسين باشا واليًا لولاية الشام وكان مسؤولًا عن كافة كل ما يتعلق بقافلة الحج الشامي في الذهاب والإياب إلى الكعبة المشرفة. لأن الأشقياء العربان في كل سنة كانوا يهاجمون قافلة الحج الشامي وينهبونها ويلحقون فيها ضررًا وظلمًا كبيرين وقد سمعت الدولة بذلك، ومن أجل ذلك كله اجتمع أصحاب الإقطاع والزعامات المحلية في سناجق ولاية الشام (1500 من الإنكشارية الشامية) وأغواتهم مع حسين باشا القائد المعظم وقد جُمِعَ الآتي في: طرابلس الشام من قرا محمد باشا (40 صرة) ومن صيدا باشا حاجي إسحق باشا (40 صرة) وذلك من قبل خوجا بكر آغا حُصِّلَت، وسُلِّمَتْ إلى حسين باشا، ومن ثم وُزِّعَت على رجالات الباشا.

فبداية أعطي كل حسب الآتي: عشرون مسؤولًا من البوابين ثلاثمائة قرش، وخمسة جمال، وغُلام واحد، وسقّا مياه واحد وحامل مشاعل واحد أيضًا، ولعشرة أشخاص من أوائل القادمين الأغوات خمسون قرشًا لكل منهم، ولمائة عدد من المتفرقة أربعون قرشًا، كما أعطي لكل مائة مغامر ومائة متطوع

1. يلفت الباحث إلى أن هذا الفصل كاملًا ترجم من النص التركي الأصلي بجهد الباحث نفسه من المجلد التاسع – القسم الثاني «سياحت نامه أوليا جلبي» للكاتبين علي قهرمان ويوجال داغلي، 2006م - إستانبول.

وعشرين من حملة الأعلام وما مجموعه ألفان من الرجال الأشداء الخيالة ما مقداره مائة قرش لكل منهم. وللهيئات خمسون قرشًا، ولاثنين من حملة أعلام التتار ومئتين من الرجال الشجعان المدججين بالسلاح لكل منهم مائة قرش، ولخمسين من السراجين، وخمسين من الطهاة وخمسين من متذوقي الطعام وخمسين من مسؤولي المؤونة ولخمسين أيضًا من مسؤولي الخيام (الخيامين- العكام) لكل هذه الأصناف أعطي خمسون قرشًا كل على حدة، بالإضافة إلى ثلاثين من العازفين لكل منهم خمسة أكياس من الصرة، زد على ذلك ألفًا من السقايين وثلاثمائة حامل مشاعل وثلاثمائة عكام وألف من الإبل ومثلهم من سائقيها وحماليها ولكل هذه الأصناف أعطيت لهم عشرة قروش كلبية. بالإضافة إلى مائة نفر من الأغوات الداخلية أحسن إليهم بمائة قرش.

اختصارًا للقول فقد منح ما مجموعه 5,120 رجلًا ما مقداره 270 صرة (كيس) و صرف ما مقداره 300 كيس (صرة) للاحتياجات والمصاريف الأخرى.

في شهر شوال من يوم (...) انطلق موكب المحمل الشريف الخاص بحضرة النبي (صلى الله عليه وسلم) باحتفال كبير عبر شوارع مدينة الشام يحيط به العديد من الحجاج المتجهزين للانطلاق بكل فرح وحبور.

وكانت حكمة اللّه في ذلك اليوم لا توصف إذ دخل مجموعة من الحجاج الإيرانيين تقدر أعدادهم بألفي حاج من حدود أرضروم وديار بكر إلى الشام وأحضروا معهم الكثير من الهدايا والعطايا التي لا تقدر بثمن لسيدنا حسين باشا.

ومن خلالهم وأسيادهم فقد عين الباشا سيدًا لهم ليقف على خدمتهم وجمع ما مقداره عشرون ليرة ذهبية عن كل واحد من أغاواتهم وخمس عشرة ليرة ذهبية عن كل رجل منهم وذلك تطبيقًا لقانون السلطان لتحصيل الضرائب وقد كانت بحق خدمة كبيرة.

وفي ذلك اليوم أصدر الباشا قرارًا بصرف ما مقداره 200 ذهبية (حسنة) لخدمتي ومصاريفي الخاصة عبر الآتي: خمسة جمال، وجمّال (هجين)، وفرس أصيل، وخيمة واحدة، وخادم خيمة، وسقّا مياه، وحامل مشاعل، وخمسة خدم، ولكل من ذُكِر عشرة قروش يوميًا، وكذلك وجبتا طعام كل يوم، وثلاث وجبات علف لحصاني الخاص، وكل صباح خمس وجبات فطور من الطعام المحضّر (الجاهز) (شطائر)، وواحدة من حلوة الكيك، بالإضافة إلى كل ما أشتهي من الطعام والشراب وكل ذلك أمر أن يُحْضَرَ إلى مقرّ خيمتي المزخرفة المزينة في مكان إقامتي ومنزلي.

بعد ذلك ويوم (20 شوال عام 1081هـ/2مارس 1671م) باسم الله تحركنا تحت قيادة أمير الحج الشامي حرموش باشا وبهذا العدد من جيش ولاية الشام والمقدر ب 5.120 جنديًا مسلحًا ومنظمًا تنظيمًا جيدًا بمعية عسكر الباشا بموكب مهيب وكبير خرج من رائحة الجنة الشام ولم أرَ جيشًا قط تفوح منه رائحة الورد كهذا الجيش، والذي خرج من الشام كموج البحر الهادر باتجاه القبلة – الجنوب عبر البساتين والحدائق بساعة من الزمن.

منازل الحج الشامي في بلاد الشام (سوريا - القسم الأول)

- منزل قصر أحمد باشا الصغير

عندما رأى جواسيس (عيون) شيوخ البدو (العربان) هذا الموكب الكبير والمهيب أرسلوا إلى شيوخهم الأتي "ليس هنالك أي مقارنة هذه السنة مع الأعوام السابقة، لأن مظهر الجيش ومقدمته تشبه إلى حد كبير الأسد الهزبر الأصفر وهذا الوزير المقدام الشهم بسيفه القاطع يقطر دمًا ولن يكون هنالك أي أمان لأي عاصٍ متمرد في هذا الزمان ولن يُبْقي أي شيء في طريقه فلذلك كله يجب عليكم أن تأتوا جميعًا مع عائلاتكم لتكونوا في خدمة السلطان" ولأجل ذلك ذهب الجواسيس (العيون) إلى كل الشيوخ وأبلغوهم بذلك.

وقد أتى عدد منهم في الحال إلى قصر أحمد باشا على خيولهم المسماة صافنات الجياد الأصيلة والتقوا مع الباشا وأخذوا نصيبهم من الحُلي الفاخرة وعادوا.

يقع هذا القصر (أحمد باشا) وسط عدد كبير من الحدائق والبساتين، وهو قصر جميل حسن المظهر، وهو مكان استراحة لكل الوزراء. وقد بناه أحمد باشا الصغير الذي استشهد في الحلة في سنة (فتح بغداد).

وفي هذا المكان يكون ديوان السلطان ويجتمع فيه كل من: جميع أعيان الشام والعلماء وأرباب الديوان

بحضور الباشا ويُدور الجمل الذي يحمل المحمل الشريف بيد كتخذا الباشا ثلاث مرات ويسلم عقاله إلى يد الباشا، ومن ثم يقول الباشا لأمير الحاج: خذ وامض بمحمل حضرة النبي الشريف، فيقول أمير الحاج: "أخذته" ثم يسجل كاتب الشام الشرعي في السجل الرسمي فيكون قد أخذ الحجة الشرعية بيده.

وبعد الدعاء تذبح القرابين وتوزع على الحضور من أهل الشام، وبعدها يعودون أدراجهم إلى الشام من حيث أتوا. وهناك خيّم الحجاج ثلاثة أيام وسط كروم الزيتون وفي منتصف الليل نفخت الأبواق (نفير الرحيل) إيذانًا بالرحيل وفي الصباح الباكر يحضر الموكب ليسير مجددًا باتجاه القبلة، ويمر الحجيج في البلدة التي قامت والدة السلطان سليمان خان بتنظيف طرقها وإعادة تعميرها مرورًا في البلدة المعمورة وحدائقها ويقطعونها بأربع ساعات.

• منزل قرية الكسوة

تقع على طرف وادٍ صخري مليء بالحدائق والبساتين، وفيها مئتا منزل مبني باللبن ومقصور بالطين وهي مسكونة بأهلها العرب، (...) أوقافه وفيها جامعان ومسجد وحمام وفندق، ومعظم أهلها كبيرهم وصغيرهم من مُحبّي الخير على طريق الحاج ويطعمون الحجاج ويقدمون لهم الأطعمة المتنوعة مثل الفطائر، والدجاج المشوي، ولحم الخروف، واللبن، والقشطة ولدوابهم الشعير والتبن. وهذه القرية متمدنة جدا وأهلها أغنياء جدًا أيضًا ومعظمهم يعملون بنقليات الإبل والجمال على طريق الحج الشامي.

داخل هذه القرية يمر نهر الكسوة الجاري ويأتي من جهة الشام الغربية سابقة الذكر من جبل الثلج ومن عين القرفة يجري وماؤه صافٍ برّاق ويضيع في صحراء الشام.

ويشرب أهل الشام وأصحاب الذوات من الوزراء من هذه المياه بواسطة السقائين لأن ماءه عذب زلال. ويضرب المثل في الشام بكل من يَسْمُن ويزيد وزنه بأنه شرب من ماء الكسوة. وتمتاز مياه وأجواء هذه البلدة بالجودة والنقاء ويحبها كل القاطنين من السكان والمجاورين والزائرين. وهي مشهورة بذلك. وفي الجهة القبلية من البلدة وعلى منحدر بسيط تقع خان طرخانة على طرفي الطريق ويوجد فيها فندقان، لكنهما صغيران، وأثناء عودة الحجاج يأتون إلى هذه المحلة وفي يوم عاشوراء بالتحديد يخيمون فيها. ومن خلال شرط صاحب هذه الفنادق تُحسى وتطبخ مئات القدور من الطرخانة[2] والعاشوراء[3] كوقف للحجاج وتوزع عليهم مجانًا، ولهذا السبب يطلق على هذين الفندقين اسم خان طرخانة. إنه بحق وقف كبير للخير.

ومن هناك يسير الحجاج صعودًا ونزولًا على امتداد الطريق الذي عمل ولاة السلطان بجد ونشاط لتنظيفها وصيانتها ووضع الحجارة على جانبيها، وفي السابق كانت الجمال والخيول والبغال تغوص أقدامها بالتراب والطين والحجارة. وتنظيفها بهذا الشكل كان محيّرًا وخيّرًا ونسأل الله الباري أن ينظّف صراطهم من الذنوب وأن يعبروا إلى جنات العُلى بسلام آمنين وتكون من نصيبهم ومثواهم أجمعين ويعبر (الحجاج) من هذا الطريق النظيف بعشر ساعات.

• قلعة الصنمين

قلعة صغيرة مربعة الشكل قياسها (600) خطوة مبنية من الحجر الأسود، وتقع في أرض الشام تحت حكم حاكم حوران مباشرة في منطقة صحراوية على حافة بحيرة صغيرة. وليس فيها محافظ قلعة ولا جنود، ولكن بداخل هذه القلعة يقطن مجموعة من السكان العربان المحليين وعددهم خمسون شخصًا وهم وعائلاتهم مُعفَوْن من الضرائب المحلية.

هذه القلعة القديمة مدشّنة منذ أيام الجاهلية، ويوجد من الجهة المطلة على الشمال بوابة مصنوعة من الأشجار(الأخشاب)، وتقع البحيرة شرق القلعة وهي محاطة بأربعة جدران مبنية من الحجارة السوداء بشكل منيع وقوي. وفيها جامع واحد بمئذنة مستقيمة ومسجدان وحمام واحد وفندق (خان) كبير الحجم، كما لا يوجد فيها سوق. ولكن على جوانب الطريق يخرج أهل البلد بغنيها وفقيرها، رجالها ونسائها لعرض متاعهم وبيعه للحجاج العابرين.

كان في أعلى برج القلعة المطل على البحيرة أيام الجاهلية صنمان (تمثالان). وكان الناس يجتمعون بأعداد كبيرة تقدر بمائة ألف رجل وامرأة مقابل

2. الطرخانــة: طعام مصنوع من العجين واللبن مثل الشــيش بورك (آذان الشايب).

3. عاشوراء : طعام مكون من القمح والعدس والحمص والزبيب.

هذين الصنمين، وكان يسأل بعضهم بعضًا ويوجهون الأسئلة المطروحة لهما: "هل ستكون هذه السنة مَحْلًا أم غلاءً؟، وهل سيقع وباء قاتل؟ وهل ستكون الأمطار غزيرة؟ أم هل سيحتل هذه البلاد الغزاة الأشقياء؟

ولأجل ذلك كله كانوا يتحدثون بمسائل الحياة المتعددة المختلفة مع بعضهم البعض. و"إذا بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي هذه السنة سيأخذ هذه الديار عنوة وسيقطع الخراج ويخرب (يدمر) الولاية؟" (هكذا) وفي السنة التي ذكروها عيّن حضرة النبي (هكذا) خالد بن الوليد قائدًا لجيش مكون من ستين ألفًا من الجند، وفتح مدينة بُصرى القريبة من هذه المنطقة وبعدها فتح قلعة الصنمين ومن ثم كسَّر الصنمين المنحوتين ورمى حجارتهما في البحيرة. وحتى الآن وعلى سواحل البحيرة يرى الناظر إليها شيئًا يشبه الصنم المصنوع من الرخام الأبيض. والآخر يظهر أنه غاص وغرق في أعماق البحيرة، ولهذا السبب سميت هذه القلعة بالصنمين. وفي معركة هذه القلعة استشهد عدد من الصحابة، وكان ممن عُرف منهم الشيخ علي عبّاسي والشيخ عبيدي طائفي، ولكل منهم مقبرة خاصة ومدفون فيها. وفي الجهة القبلية (الجنوبية) من القلعة يوجد جسر منخفض. له 19 عينًا (قنطرة) صغيرة. ويجري أسفله نهر بُصرى. ويصب في الجهة الغربية في بحيرة مينيا، ولأن أمطار الشتاء كانت غزيرة هذه السنة فالبحيرة ممتلئة بالمياه وطافحة إلى حدها الأعلى. وبعد العبورمن الصنمين على مسافة ساعة باتجاه القبلة – جنوبا (...). (هكذا في النص الأصلي كما هي باقي الفراغات المتروكة والمحددة بين قوسين).

- زرعا

يوجد فيها 600 بيت جامع وفندق (خان) وهي قرية مأهولة ومعمورة. وهي تتبع وقفية جامع السليمانية في شام شريف (دمشق). ومن هناك أيضًا باتجاه القبلة (...) في ساعة.

- قرية بُصرى الصغيرة

قرية مأهولة بالسكان وفيها ثلاثون منزلًا وجامعًا. وتبعد عن مدينة بُصرى الكبرى التي وصلها حضرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للتجارة من جهة القبلة على بُعد خمس ساعات وفي الجهة القبلية لبُصرى الصغرى (...) ساعة.

هذه نهاية القسم الأول من البحث ويتبع في العدد القادم إن شاء الله القسم الثاني لبقية الرحلة لأنها كبيرة وتزيد عن 55 صفحة.

عبد القادر محمود الحصان
alhousa@yahoo.com
المفرق – الأردن.
جامعة آل البيت – متحف سمرقند.

المراجع:

زكريا، أحمد وصفي
1934 **جولة أثرية في بعض البلاد الشامية**، (1353هـ). دمشق، دار الفكر.

صابان، سهيل
2001 اولياء جلبي ورحلته إلى الحجاز في أواخر القرن الحادي عشر الهجري، مجلة الدرة 34، س 27 (1422هـ). ص. 62-93.

الحصان، عبد القادر
2011 تسليط الضوء على سياحت نامه - أوليا جلبي في بلاد الشام، طريق الحج في الأردن، الندوة الدولية، صورة العالم الإسلامي في سياحت نامة - **اوليا جلبي، بلاد الشام، ندوة عالمية**، جامعة آل البيت، مركز دراسات العالم الإسلامي، المفرق.

Stephan, st. H.
1936 Evliya Chelebies Travels in Palestine *QDAP* Vol. VIII No. 4. Pp.137-140; Vol. IX P. 88.